فى التاريخ وهى انحطاط مجموعة عظيمة من بنى الانسان واستمرار هذا الانحطاط حتى الآن بحيث لايكفى لتحويل هذه الحالة الى حركة تقدم وتحسين الا قوة تعوق القوى البشرية

يتبع

ابو الفتح الفقى

الغريزة

اتفقت كلمة العلماء على أن للنفس نزعات طبيعية ، لازمة للحياة ، يشترك فيها الانسان والحيوان . وأجمعوا على أنها أساس الادراك ، ومنبع الشعور ، ومظهر الحياة ، وسر الوجود ، غير أنهم لم يهتدوا الى كشف غامضها . وادراك حقائقها . والوقوف على أصلها . وسبب نشأتها . مع عنايتهم بها . وشوقهم الى حل رموزها . وغاية ماقالوه : أنها مدركة الأثر . فى كل كائن حى . وقال بعضهم مامعناه : انك اذا سلبت الكائن الحى ميوله الغريزية . سلبت معها القدرة على أى فعل كان فيبقى بعدها عاجزا لاحراك به كأنما هو ساعة فقدت ألواها (زمبلكها) أو آلة بخارية أطفئت نارها . وذهب بخارها . وهذه الميول هى القوي الروحية التى تحفظ حياة الفرد والجماعة ، وتعطيها صورتها الخاصة . وفيها ترى السر الخفى للحياة والعقل والارادة.

وقد حاول العلماء وضع حد تام لهذه الميول التى سموها بالغرائز

غير أن تعاريفهم جاءت مختلفة على حسب اختلاف وجهاتهم النظرية . واليك ما قال بعضهم

قال «مكدوجل [١]» الغريزة ميل طبعى نفسى جسمانى يحتم على صاحبه ادراك نوع خاص من الاشياء ويوقظ فى نفسه انفعالا وجدانيا خاصا عند ادراك أحدها . ويدفعه الى عمل خاص أو على الاقل يبعث فيه الرغبة : وحب العمل . وهو تعريف نفسى يستحق العناية . أما الاستاذ « جيمس »[٢] فقد عرفها بأنها القدرة على عمل . يوصل الى غاية لم يسبق ادراكها ومن غير سابق تعليم ولا شك ان الاستاذ عرف الغريزة من حيث أثرها فى الخارج . لا من حيث أثرها فى النفس ، وأنت خبير بأن علم النفس يبحث عن الآثار النفسية ، على أن تعريفه لا يشمل الأفعال الغريزية المتكررة . فانها مسبوقة بتعلم بوساطة التجارب وعرفها غيره فقال « بأنها ميل وراثى فى المجموع العصبى ناشىء عن اتصال بعض المراكز العصبية بعضها ببعض وتنظيمها بدرجة خاصة قابلة للتغيير . وهذا الميل ينفعل بطائفة خاصة من المؤثرات فينزع الى عمل أو عدة أعمال له غرض نافع لم يسبق ادراكه . ولم ترشد اليه التجارب » ولا يخفى أن هـذا تعريف حسن اذا نظرنا اليه من جهة علم الاعضاء لأنه يتكلم عن سبب هذه الميول ويذكر أنها ناشئة عن اتصال المراكز

---

(١) « ويليام مكدوجل » أستاذ الفلسفة النفسية بجامعة اكسفرد بانجلترا

(٢) « ويليام جيمس » استاذ الفلسفة بجامعة « هرفارد » بأمريكا « توفى »

العصبية وما أبعد هذا من علم النفس الذى يبحث عن التجارب الشخصية والآثار النفسية وضروب الوجدان

وقال الاستاذ « جيمس دريفر [١] » فى كتابه (الغريزة فى الانسان) أن الغريزة ميل طبعى يبعث على الادراك، مصحوب بالشعور، يدفع الى العمل. وهذا التعريف على قصره يشمل جميع مميزات الغريزة

بعض الافعال الغريزية

١ اذا رأيت النار تندلع ألسنتها وينتشر شررها فيكاد يلتهم بيتا يقيم به أهلك. اعتراك الخوف واستولى على نفسك ودفع بك الى عمل ما فاذا اشتدت درجته وقوى أثره جعلك آلة صماء لا تستطيع الحركة

٢ يرى القط الفار فيعدو وراءه ويحاول افتراسه والمسكين يبغى الهرب ويحاول النجاة

٣ ينقر الفريخ الحشرات ويتبع الزواحف بعينيه من غير سابق تعلم أو تجربة

٤ يرى التلميذ فى ساحة المدرسة آخر يلعب الكرة ويجرى وراءها من زاوية الى زاوية فيميل الى تقليده ويعمل أعماله

٥ يرى الصبى العصا مع زميله فيود لو كانت له فتمتد اليها يده ويأخذها منه فاذا حال دون ذلك حائل غضب واضطرب وضاعف القوة وبذل ما فى وسعه للحصول عليها

---

(١) « جيمس دريفر » استاذ الفلسفة النفسية بجامعة كمبردج

كل هذه أعمال غريزية يندفع اليها الانسان أو الحيوان بطبعه ولكن تعال بنا نحلل بعضها ونرى ماتحويه من المظاهر الغضة وأنت خبير بأن هذه الأمثلة كلها تجارب وكل مايلاقيه الانسان فى حياته من التجارب له ثلاث مظاهر نفسية

(١) مجرد الادراك (Cognition)

(٢) النزوع أو الارادة (Conation)

(٣) الشعور (Feeling)

خذ المثال الأول ألست ترى أنك تدرك النار وتشعر بالخوف لأنها خطر على أهلك ومالك وتنزع بك نفسك الى العمل لاتقاذهم

خذ المثال الثانى . يدرك القط الفأر ويشعر بالعلاقة بينهما فيندفع عدوا وراءه أما الفأر فيدرك كذلك القط ويشعر بالعلاقة بينهما ويفسرها تفسيرا خاصا فيندفع الى الهرب

خذ المثال الخامس . يدرك الطفل العصا ويشعر بأنه يحب امتلاكها ويدفعه ذلك الى أخذها فاذا منعه مانع اشتد ذلك الشعور حتى صار وجدانا [1] فدفعه الى مضاعفة القوة وبذل الجهد فاذا استمر الآخر في المقاومة زاد الغضب ولجأ الأول الى منتهى ماله من القوة حتى يحصل على غايته أو يخضع مكرها لقوة فوق قوته

---

(١) جعلنا كلمة « وجدان » لتأدية معنى Emotion وكلمة شعور لتأدية معنى Feeling

وقس على ذلك بقية الأمثلة فأنت ترى ولا شك أن هذه المظاهر النفسية الثلاثة التى قدمنا ذكرها كامنة فى كل من هذه الامثلة

وهذه العوامل الثلاثة يؤثر بعضها فى بعض وانا لموضحون ذلك بذكر بعض الامثلة

(١) يرى الصبي الفارس يمر بقريته فيشعر بتقليده ويندفع الى ركوب العصا التى فى يده فاذا رأى مسكينا يسأل الناس الصدقة تغيرت العصا فرجعت الى ما كانت عليه فتوكأ عليها وقلد ذلك الفقير فى مشيته وحركاته وسكناته

فاذا رأى الحارث يتبع ثوريه ومعه المحراث قلبت له كيمياء الخيال هذه العصا الى محراث حاد يشق الارض ويفلحها فيبذر البذور ويغطى عليها الى غير ذلك

(٢) هبك ذاهبا للتنزه فى المروج الخضراء واستنشاق النسيم العليل فى البساتين بعيدا عن الضوضاء وزحام العاصمة فرأيت الشمس لا تزال حرارتها تذيب دماغ الضب فترددت فى الأمر ثم عقدت النية على الخروج ولكنك وأنت مار بالدهليز رأيت المظلة فتناولتها بيدك وفتحتها تستظل بها من حرارة الشمس المحرقة

استمر بك السير حتى بعدت عن العمران ونظرت حولك فاذا قاطع طريق قد انقض عليك يريد سلب ما معك من المال فأخذت تذب عن نفسك وتضربه بالمظلة ويراك بعض الناس فيقبل عليك ويساعدك على النجاة منه — تستهويك المناظر وترى البساتين الخضراء والاشجار

المورقة فتستمر فى طريقك وتخرج منديلك تمسح به عرقك المتصبب وبينما أنت تعبر نهرا صغيرا هب النسيم وطار بمنديلك الى الماء فأخذك الغضب ورجعت للحصول عليه وجعلت المظلة كخطاف وقربت من الماء ولا زلت تشتغل حتى قيضه الله لك

انا اذا دققنا النظر فى المثال الاول وجدنا أن الذى دفع الصبى الى تصرفه هذا هو أولا رؤية الفارس وفرسه وثانيا رؤية ذلك المسكين السائل يتوكأ على عصاه وثالثا رؤية الحارث وهذه ثلاثة بواعث مختلفة اقتضى كل واحد منها عملا أو عدة أعمال خاصة

ففى الحالة الاولى نجد هذه العوامل

(١) أدرك الصبى العصا على أنها فرس

(٢) مال الى استعمالها بطريق خاص

(٣) شعور يجده فى نفسه يدفعه الى استعمالها كفرس

وفى الحالة الثانية نجد

(١) ادراك العصا على أنها عصا يتوكأ عليها

(٢) ميله الى استعمالها كعصا

(٣) شعور خاص يدفعه الى ذلك

وفى الحالة الثالثة نجد

(١) ادراك العصا كحراث

(٢) استعمالها كحراث

(٣) شعور يدفع الى ذلك

فاذا وازنا بين هذه الاشياء علمنا أن العصا قد تغيرت وتبدلت على حسب حاجة الصبي فطورا أدرك منها فرسا ملجما وتارة عكازا يعتمد عليه وأخرى محراثا يشق الارض شقا وتبع ذلك اختلاف فى الشعور والعمل وقس على ذلك المثال الثانى . وهنا يجب أن ننبه القارىء الى ان درجة الشعور تتفاوت تفاوتا بينا فقد يكون قويا وقد يكون ضعيفا لايكاد يلاحظ غير أنه هناك على كل حال . وان السبب فى قوة الشعور ومضاعفته هو حيلولة أي شيء بين الانسان وبين ماينبغى من الافعال الا ترى أن الطفل يقطب وجهه ويضرب الارض برجليه ويبكى ويصيح اذا لم يعطه زميله كما ذكرنا فى المثال الخامس

وان غضبك عند انقضاض قاطع الطريق عليك أشد من غضبك مثلا عند ذهاب الريح بمنديلك الى النهر ؟

محمد على المجذوب
أستاذ التربية
دار العلوم